هب يا صديقي جماعة قدار تحطمت سفينتهم على جزيرة مهجورة لا أثر للحياة فيها ، ولكنهم ألفوا على أرضها آثار أقدام ليست من آثارهم هم ، فماذا يعللون هذه الظاهرة إلا أن أناساً غيرهم كانوا بالجزيرة منذ حين ؟ أظن هذا منطقاً لا صعوبة فيه ولا التواء : لكل أثر مؤثر ، فان رأينا أثراً ولم نجد بيننا مؤثره أيقنا أن هذا المؤثر لا بد أن يكون موجوداً في غير مكاننا . وها نحن أولاء ننظر فنرى أنفسنا فوق هذه الجزيرة المهجورة التي تسبح بنا في الفضاء ، ثم ننظر فاذا بآثار لا يحصيها العد تفرض علينا فرضاً أن أحداً غيرنا قد اتصل بهذه الجزيرة وهو يتصل بها في كل حين ليحدث هذه الآثار

ولست أدري ماذا يضيرك أن تعلل بالعلم ما يمكن العلم أن يعلله ، وأن ترجع إلى القوة التي فوق الطبيعة كلّ ما تصادف من خوارق ومعجزات ؟ يقول الماديون إن إدخال « الله » في مجرى الطبيعة عجز وقصور عن التعليل الصحيح ، ويزعمون أن الانسان الأول كان يفسر كل شيء بقوة الآلهة لقلة محصوله من العلم ، فكان إذا اكتسب شيئاً من العلم يعلل به ظاهرة ما ، أسقط هذه الظاهرة من دائرة نفوذ الله وأدخلها تحت سيطرة العلم ؛ وهكذا أخذ العلم ينمو ويتسع كما أخذت العقيدة في تأثير الله على سير الطبيعة تضؤل وتضيق ، وهم يرجون أن يطرد نمو العلم حتى يشمل الكون جميعاً ويفسر « الظواهر » كلها بغير استثناء ؛ وهم بناء على ذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعللوا شيئاً إلا على أساس واحد : هو قانون الطبيعة ويلفظون من حظيرتهم كل من يحاول أن ينسب شيئاً إلى قوة أخرى غير قوة الطبيعة وقانونها ! وقديماً كان العالم أو إن شئت فقل الكاهن يفسر كل شيء بقوة الآلهة وحدها ، وينبذ كل من يحاول أن يفسر شيئاً على غير هذا الأساس ! فهل ترى فرقاً بين الكاهن القديم والعالم الحديث ؟ كلا ، فكلاهما متعصب محدود الفكر ، ضيق النظر ، ولعمري إن العالم المادي الحديث لم يزد على أن ارتدى رداء سلفه الكاهن مقلوباً ظهراً لبطن !

لعله أقرب لروح العلم الصحيح أن تتناول الأبحاث أحراراً من كل قيد ، فلا نفرض لأنفسنا أساساً معيناً للبحث لا نعدوه ، أعني أنه لا ينبغي أن نحتم على أنفسنا أن نفسر كل شيء بكذا أو بكذا ؛ وإلا كنا كعلماء الفلك الأقدمين الذين كانوا ينظرون في السماء ويبحثون في النجوم على شرط أن يكون بحثهم مقصوراً على ما هو معروف من النجوم ، فان ظهر كوكب أو نجم جديد أنكروه ورفضوه ! !

أردت يا أخي أن تكون حراً في البحث فكبلت نفسك بالأغلال والقيود ! فارفع عن بصرك هذه الغشاوة عسى أن يهديك الله سواء السبيل

زكي نجيب محمود

٢ ـ منازل الفضـــل

دار علي مبارك باشا

للأستاذ محمد محمود جلال

من الأسماء ما يخف على سمعك لمجرد تركيبه ووقع نغمه في الأذن ، ومنها ما يعجبك لمعنىً يشير اليه ؛ وقد يعجبك الاسم وقد خلا من هذين اعجاباً بشخصية قدّرت في التاريخ دورها ؛ وقد يكون من بين الأسماء ما ينفر منه السمع ، وهو مع ذلك حبيب إلى نفسك لذكرى تتصل به أو جيل أردفته بالعرفان

ويقص المتشيعون للعلاقة بين الاسم والمسمى من علماء اللغة أن أحدهم سأل اعرابياً عن معنى « أذغاغ » فقال الاعرابي وهو لا يعرف من الفارسية شيئاً : « أرى فيه يبساً وصلابة ، ولعله الحجر »

وليس للطفولة أن تسمو إلى شيء من ذلك البحث أو ذاك القياس ، وإنما يسبق فيها الاحساس المعرفة ، فما نظرت إلى شيء من ذلك يوم كان « شارع علي مبارك باشا بالحلمية » أحب الشوارع الى سنة ١٩٠٨ ، فكنت أخصه بروحاتي وغدواتي ، وأختص « اليافطة » أول سيري به بتجربة قدرتي على قراءة الخط والخط المشبك

سكنا الحلمية بعد أن هجرنا دارنا الأولى بدرب الجاميز حيث مأمورية الأوقاف الآن ، على أثر خلاف بيننا وبين ديوان الأوقاف على حيازة القطعة المجاورة لتوسيع الدار بطريق البدل ، ولا أجد اليوم تعليلا معقولاً لتفضيلي إلا بالصلة التي توجدها النشأة ، وقد نشأت في الزيف ، ومن أسرة فلاحة ، واسم علي ومبارك

كثيرا الشيوع فى الفلاحين ، فلم يكن عجيباً أن يكون هذا الاسم أقرب إلى النفس وأسهل فى الحفظ من أسماء نمر أن نسمع بها « كسنجر الخازن » و « الأمير يوسف » وغيرهما

أجل لم يكن بذلك الشارع بائع (سودانى) ولا شوكولاته ، ولم تكن حوانيت الساندويتش انتشرت بعد ، حتى أرد التفضيل إلى تلك المقريات فى سن الطالب

وفى عام ١٩١١ أهدتنى الجمعية الخيرية الاسلامية مجموعة ثمينة من الكتب لنجاحى من الفرقة الثالثة فى الشهادة الابتدائية ، كان من توفيق الله أن ضمت بين دفتيها « تاريخ على مبارك باشا » ولن أنسى ما حييت غبطتى بهذا الكتاب ، وذكرت على التو شارع على مبارك باشا ، وقلت : إذن فهذا رجل له فى تاريخ البلاد شأن !

عكفت على القراءة مبتدئاً به ، وخفق قلبى حين وقعت فى أوله على نشأة « على مبارك » فصدق ظنى ، فهو فلاح وابن فلاح مثلى ، فلم أترك الكتاب حتى جئت على آخره ، وأعدت قراءته مرات حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب إذ ملئت اعجاباً بالرجل

سميت المرحوم محمد شريف باشا حين كتبت عنه « رجل البرنامج » ، وليس اليوم أحق بأن يسمى « رجل الواجب » من المرحوم على مبارك باشا

رأى صديق المرحوم محمد بك رمضان القاضى السابق بالمحاكم الأهلية حين زار (ڤينا) عقب الحرب أحد ضحاياها « چول » يزحف وقد بقيت له ساق واحدة وذراع واحدة ، وبيده الوحيدة مكنسة ينظف بها الرصيف ، فسأله عن قصته

قال چان : إنه كان يعمل فى التحاليل الكيميائية ، ويؤدى بذلك واجبه نحو بلاده وأسرته ، وانخرط فى سلك الجندية يؤدى واجبه نحو بلاده وأسرته ، فلما فقد ساقه وجد مجال الواجب فى عنابر الجيش يلف ويرتب بيديه ، ولما فقد إحدى اليدين وكانت الحرب فى نهايتها اشتغل كناساً ، فهو بعد لا يسترح ضميره أن يكون من العاطلين ، ومن بين اخوانه من هو أحق منه بالاعانة والاعاشة ، وليس أحب إلى نفسه من أن يقوم بالواجب ويعيش من أداء الواجب ، فليس فرق عنده بين المعمل والصفوف ، ولا بين العنابر وكنس الرصيف !!!

حيّاه صديق عليه رحمة الله ، وكتب عنه مقالاً كاملاً يذيع نبل نفسه ويضربه مثلاً لقومه

وكذلك كان على مبارك باشا ، فهو من نوابغ البعوث العلمية فى أول البعوث ، وهو المبرز بين أفراد بعثته ، وبلاده فى حاجة إلى أمثاله ، وفى حاجة أشد الحاحاً اليه ؛ ولكن لا زهو ولا صلف ولا استكانة ! فالحاجة اليه يراها نعمة الله تستوجب الشكر ، والعلم الذى يقدره الناس فيه يراه الثروة التى زكاها البذل منها فى خير البلاد

ومن لم يجمّل فضله بتواضع يَبِن فضله عنه ويعطل من الفخر

كان على مبارك باشا (ناظراً) وزيراً للأشغال يسيطر على أكبر الادارات صلة بحياة البلاد ومرافقها ، يضع الخرط وينظم حفر الترع والجسور التى طالما أحيت مواتاً ودرت أخلاف الرزق على الملايين وتركت اليباب مزارع وحقولاً ، فى أول عهد البلاد بزراعة منظمة وري منظم

وبينا هو غارق فيما تعده اليوم أبهة المنصب ، ينقل لسبب أو لغير سبب ، لغضب أو لتقدير موهبة منتدباً لاصلاح طابية وهو من خريجى المعاهد الحربية ، فينتقل قرير العين وكأن العالم صور فانحصر فى تلك الطابية لا يرى أمامه إلا أن يعيدها كما يجب أن تعد تقديراً لأمانة العلم وقياماً بالواجب

ولى على مبارك باشا فى وقت ما وزارتين ، وجيء به وقتاً آخر يشرف على مد خط حديدى ليس أكثر من كبير مهندسين ، جاءت خطته وأوضاعه وتنفيذ مشروعه آيات فى حسن الوضع والتنفيذ ؛ ولم يكن على مبارك باشا ذو الوزارتين غير على مبارك صاحب عيشة الخيام فى براري البلاد يوطد أركان الدفاع عنها ، ولا غير ذلك الرجل الهادئ رجل الواجب ، يضع من قطع الحديد وصلاً لبلاد الريف وقراه وتقريباً للشقة وتيسيراً لأمور الخلق ، فهو إنما يعيش لبلاده ، وإنما يخدم بلاده ، وإنما يخدمها حيث يوضع ، ويستثمر كفايته فى أى مجال . طريقته واحدة ونظرته واحدة ، وهدفه واحد : الواجب

وإنك لترى اليوم من شبابنا من ينقل من وظيفة إلى أخرى دون أن يمس راتبه ودون أن تمس درجته ، فهو لا يكتفى بالشكوى والضجيج والالحاح حتى يسمم عمله الجديد آثار غضبه ويأسه

ولايعيش إلا بخيال واحد وأمل واحد : أن يتغير العهد ويعود له ما كان فيه ، بينما يقاسي المحكومون ممن تتصل أحوالهم بعمله ألواناً من البطء في شؤونهم وكثيراً من عنت لا ذنب لهم فيه

هذه الظاهرة وحدها من سيرة « على مبارك باشا » درس قيم في الأخلاق وتراث زاخر ، وموعظة لهذا الجيل بالغة

* * *

أما عمله في وزارة المعارف ففي كل ركن من أركان التهذيب والتثقيف له أثر عميق ، كان لا ينى عن زيارة المدارس زيارة لا يسبقها إعلان ولا شيء من جلبة الرسميات ، ولو خلت من هذا وحده لكانت بذلك كافية في معنى الرقابة وما يتصل بالحرص على الواجب من الوقوف على درجة التقدم وعيوب التنظيم

لكنها لم تقف عند ذلك الحد ، فكان عليه رحمة الله يسأل أكثر من طالب في كل فرقة وفي أي مادة يتفق تدريسها مع ساعة الزيارة ، وطالما كان له جولات في مختلف العلوم مع من يزورونه من الطلبة في الديوان سواء لرفع شكاة أو تبيان مصلحة

هكذا كان على مبارك باشا . فانظر إذن وتخيل ما تكون عليه دار أسعدها الله بسكنى رجل الواجب

كان عهده نادر المقاهي والسوامر والملاهي ؛ وكانت الدور العامرة سواء في العواصم أو في الريف تقوم بدورها في صيانة الأخلاق وتكوين الجيل ، والعلماء وقت ذاك قليل ، وعلى مبارك بين القليل درة لامعة

دار كانت بالوافدين والساعين إلى العلم أكثر ازدحاماً مما ترى اليوم في جامعة أو في سينما ، لكل فريق دور ، والأدوار متعددة تنتهي بآخر السهرة من الليل لاختلاف أوقات الفضاء لصاحب الدار أو للوافدين

دار طالما عمرت بصالح الحديث وبعدت بنازليها عن اللغو ، فصفوة العلماء يبحثون ويباحثون ، وللأدباء فيها نصيب كبير ، وللطلاب النصيب الأوفر

تزين الدار مكتبة جامعة ، نصيب الرجل منها كنصيب أي واحد من قاصديه ، وعليه هو القوامة على تنسيقها وحفظها ، بل عليه أن يختار لكل ما يلائمه ، يبذل من الكتب والمراجع كما يفيض من محفوظه وتجاريبه ؛ وهل يستطيع على مبارك إلا أن يكون واحداً في كل تصرفاته وفي روحاته وغدواته يقوده الواجب ، وسيرته التماس النفع للبلاد ؟

ولقد أعلم أن المرحوم « مصطفى كامل باشا » الذي ما زالت البلاد تعتز في ظل ما خلف إلى اليوم ما أحسن المحسن وما أساء المسيء ، كان في شطر كبير من تكوينه العلمي أكبر حسنات تلك الدار ، كما كان صاحب الدار أكثر الناس إعزازاً للنجباء من أبناء البلاد ، فمن نزح إلى أوربا يكمل تعلمه ، لا يني في البحث عنه في العطلة الصيفية وفي عودته إلى الوطن ، ولا تلبث الحلقات أن تعقد من أولئك الأنجاب في تلك الدار التي ازدهرت وقتاً ما فازدهرت بها حديقة العرفان وكللت جبين البلاد

كانت مهمة الدار في أفق العلم مهمة الجامعات ، فهي سيطرة رفيقة على تنظيم الثقافة وتوزيعها على قدر المختلفين إليها ، وكانت فيما عس الذين أكملوا دراستهم واسطة العقد ، ووسيلة التعارف وأداة الوصل ، كما كانت للنازحين في طلب العلم مرداً إلى عوارف الوطن ، وجميل المدرسة الأولى ، وخير مقرب بين الثقافتين ، وخير قوام على تطبيق المعلومات وتهذيبها وصبغها بما يناسب صبغة البلاد

أين تلك الدار ؟ وأين كعبة العلم ؟ ذهبت بها تصاريف الزمان وعفاها ما يشبه الجحود منا حكومة وشعباً ، ومثلها مثل قصر أم الحسنين في حي الدوبارة ، قامت أحجاره يسخر منها « قصر الدار » وخلا من كل شيء إلا من نسيج العنكبوت

بل إن للعلم عند الله كرامة ! فلئن ذهبت رسوم الدار بين الرياح من جنوب وشمال فقد أكرم الله نازلها وعامرها بهذا العفاء ، فلعلها لو عاشت لظهرت غريبة ولأزرى بها انصراف مؤلم عنها وشماتة من دور قامت على الإساءة للبلاد والسخرية مما ينفع الناس

يبحث إخواننا من أهل العراق عن « المثنى » ويقيمون باسمه نادياً ، فهلا نسمع من شباب الجامعة عزماً على البحث عن مكان الدار وتسمية ناديهم باسم « على مبارك »

إذا كان هذا عزيزاً على أنواء الزمن فهل نسمع في القريب أنهم زينوا إحدى غرف النادي أو قاعات البحث بالجامعة باسم الراحل الكريم ؟! .

أيها الناس أكرموا السلف يكرمكم الخلف ، فكما يدين الفتى يدان ... ؟

الشيخ عطا — محمد محمود مهلول
المحامي